المراسلة الأولى

لصديق حسن خان

تنبيه على أخطاء وقعت في تفسيره

من حمد بن عتيق إلى الإمام المعظَّم والشريف المقدَّم المسمّى محمّدًا الملقَّب صديق، زاده الله من التحقيق، وأجاره في مآله من عذاب الحريق.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد:

فالموجب للكتاب إبلاغ السلام، والتحفِّي والإكرام، شيَّد الله بك قواعد الإسلام، ونشر بك السنن والأحكام.

اعلم وفَّقك الله، أنَّه كان يبلغنا أخبار سارَّة بظهور أخ صادق ذي فهم راسخ، وطريقة مستقيمة يقال له صديق، فنفرح بذلك، ونسرّ لغرابة الزمان، وقلَّة الإخوان، وكثرة أهل البدع والأغلال.

ثمَّ وصل إلينا كتاب الحطة وتحرير الأحاديث في تلك الفصول، فازددنا فرحًا، وحمدنا لربِّنا العظيم؛ لكون ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس.

وكان لي ابن يتشبَّث بالعلم ويحبّ الطلب، فجعل يتوق إلى اللحاق بكم، والتخرُّج عليكم، والالتقاط من جواهركم؛ لذهاب العلم في أقطارنا، وعموم الجهل وغلبة الأهواء.

فبينما نحن كذلك، إذ وصل إلينا التفسير بكماله، فرأينا أمرًا عجيبًا ما كنَّا نظنُّ أنَّ الزمان يسمح بمثله وما قرب منه؛ لما في التفاسير التي تصل إلينا من التحريف والخروج عن طريقة الاستقامة، وحمل كلام الله على غير مراد الله، وركوب التفاسير في حمله على المذاهب الباطلة، وجعلت السنَّة كذلك، فلمَّا نظرنا في ذلك التفسير تبيَّن لنا حسن قصد منشئه وسلامة

عقيدته، وتبعُّده مِن تعمُّد مذهب غير ما عليه السلف الكرام، فعلمنا أنَّ ذلك من قبيل قوله: ﴿وعلَّمناه من لدنَّا علمًا﴾[الكهف: ٦٥].

فالحمد لله ربِّ العالمين حمدًا كثيرًا طيِّبًا كما يحبُّ ربُّنا ويرضى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، فزاد اشتياق التائق وتضاعفتْ رغبتُه، ولٰكن العوائق كثيرة والمثبطات مضاعفة، والله على كلِّ شيء قدير، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس.

فمن العوائق تباعد الديار وطول المسافات، فإنَّ مقرَّنا في فلج اليمامة، ومنها خطر الطريق وكثرة القطَّاع، وتسلُّط الحرامية في سلب الأموال، واستباحة الدماء وإخافة السبيل.

ومنها ما في الطريق من أهل البدع والضلال، بل وأهل الشرك من رافضيّ وجهْميّ، إلى معتزليّ ونحوهم، وكلّهم أعداء -قاتلهم الله-. ربَّنا آتنا من لدنك رحمة وهيِّئ لنا من أمرنا رشدًا.

ومع ذلك فنحن نرجو أن يبعث الله لهذا الدين مَن ينصره، وأن يجعلنا من أهله، وأن يُسهِّل الطريق ويرفع الموانع، ونسأله أن يمنَّ بذلك، فهو القادر عليه.

ولمَّا رأينا ما منَّ الله به عليكم من التحقيق وسعة الاطِّلاع، وعرفنا تمكُّنكم من الآلات، وكانت نونيَّة ابن القيِّم المسمَّاة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية بين أيدينا، ولنا بها عناية، ولٰكن أفهامنا قاصرة، وبضاعتنا مزجاة من أبواب العلم جملة، وفيها مواضع محتاجة إلى البيان، ولم يبلغنا أنَّ أحدًا تصدَّى لشرحها، غلب على الظنِّ أنَّك تقدر على ذلك، فافعل ذلك يكنْ من مكاسب الأجور، وهي واصلة إليك، إن شاء الله، فاجعلْ قراها شرحها وبيان معناها، وأصلِحْ النية في ذلك تكنْ حربًا لجميع أهل البدع، فإنَّها لم تبق طائفة منهم إلاَّ ردَّت عليها

فهذان مقصدان من بعثها إليك:

أحدهما: شرحها.

والثاني: الاستعانة بها على الردِّ على أهل البدع؛ لأنَّ مثلك يحتاج إلى ذلك؛ لكونك في زمان الغرابة وبلاد غربة.

فإن كنت حريصًا على ذلك، فعليك بكتاب (العقل والنقل)، و(التسعينيَّة) لشيخ الإسلام ابن تيمية، و(كتاب الصواعق المرسلة على الجهميّة والمعطِّلة)، و(الجيوش الإسلاميّة) لابن القيِّم ونحوها من كتبهما، فإنَّ فيها الهدى والشفاء.

ولنا مقصد ثالث هو مهمّ، وهو أنَّ هذا التفسير العظيم وصل إلينا في شعبان سنة سبع وتسعين ومائتين وألف (١٢٩٧هـ) هجريَّة، فنظرتُ فيه وفي هذا الشهر وفي شوَّال، فتجهَّز الناس للحجِّ، ولم أتمكَّن إلاَّ من بعضه، ومع ذلك وقفت فيه على مواضع تحتاج إلى تحقيق، وظننتُ أنَّ لذلك سببين:

أحدهما: أنَّه لم يحصل منكم إمعان نظر في هذا الكتاب بعد إتمامه، والغالب على من صنَّف الكتب كثرة ترداده وإبقائه في يده سنين يبديه ويعيده، ويمحو ويثبت ويبدِّل العبارات، حتَّى يغلب على ظنِّه الصحَّة غالبًا، ولعلَّ الأصحاب عاجلوك بتلقِّيه قبل ذلك.

والثاني: أنَّ ظاهر الصنيع أنَّك أحسنتَ الظنَّ ببعض المتكلِّمة، وأخذتَ من عباراتهم، بعضًا بلفظه وبعضًا بمعناه، فدخل عليك شيء من ذلك ولم تمعن النظر، وفيها لهم عبارات مزخرفة فيها الداء العضال.

وما دخل عليك من ذلك فنقول- إن شاء الله- بحسن القصد، واعتماد الحقِّ وتحرِّي الصدق والعدل، وهو قليل بالنسبة إلى ما وقع فيه كثير ممَّن صنَّف في التفسير وغيره. وإذا نظر السني المنصف في كثير من التفاسير وشرح الحديث، وجد ما قلته وما هو أكثر منه.

وقد سلكتم في هـذا التفسير في مواضع منه مسلـك أهل التأويل، مع أنَّه قـد وصل إلينا لكم رسالـة في ذمِّ التأويل مختصرة، وهي كافيـة ومطلعة، على أنَّ ما وقع في التفسير صدر من غير تأمُّل، وأنَّه من ذلك القليل.

وكـذلك في التفسير من مخالفـة أهل التأويل مـا يدلُّ على ذلك، وأنـا اجترأت عليك وإن كـان مثلي لا ينبغي لـه ذلك؛ لأنَّـه غلب على ظنِّي إصغاؤك إلى التنبيه، ولأنَّ من أخلاق أئمَّة الدين قبول التنبيه والمذاكرة وعدم التكبُّر، وإن كـان القائل غير أهل، ولأنَّـه بلغني عن بعض مـن اجتمع بك أنَّك تحبُّ الاجتماع بـأهل العلم، وتحرص على ذلك، وتقبـل العلم ولـو ممَّن دونك بكثير، فـرجوت أنَّ ذلك عنـوان توفيق، جعلك الله كـذلك وخيرًا من ذلك.

واعلم أرشـدك الله أنَّ الذي جـرينـا عليه أنَّـه إذا وصل إلينـا شيء من المصنَّفـات في التفسير أو شرح حديث، اختبرنـاه واعتبرنـا معتقده في العلـوِّ والصفـات والأفعال، فـوجدنـا الغالب على كثير من المتـأخِّرين أو أكثـرهم مذهب الأشـاعرة الـذي حاصله نفي العلـوّ، وتأويل الآيات في هـذا الباب بالتأويلات الموروثة عن بشر المريسي وأضرابه من أهل البدع والضلال.

ومن نظر في شروح البخـاريّ ومسلم ونحوهما، وجد ذلك فيهـا. وأمّا ما صنِّف في الأصول والعقائد، فالأمر فيـه ظاهر لذوي الألباب. فمن رزقه الله بصيرة ونورًا وأمعن النظر فيما قـالوا، وعرضه على ما جـاء عن الله ورسوله ﷺ وما عليـه أهل السنَّـة المحضة، تبيَّن له المنـافاة بينهما، وعـرف ذلك كما يعـرف الفرق بين الليـل والنهار، فـأعْرِض عمَّا قـالـوه، وأقْبِلْ على الكتـاب والسنَّـة، ومـا عليـه سلف الأمَّـةوأئمَّتهـا، ففيـه الشفـاء والمقنـع. وبعض المنصفين يذكر ما عليه السلف وما عليه المتكلِّمون، ويختاره ويقرِّره.

فلمَّا اعتبرنا هذا التفسير، وجدناك وافقتَهم في ذكر المذهبين، وخالفتَهم

في اختيار ما عليه السلف ونقرِّره. وليتك اقتصرتَ على ذلك، ولم تكثِّر هذا الكتاب بمذهب أهل البدع، فإنَّه لا خير في أكثره، وما فيه من شيء صحيح، فقد وُجِد في كلام السلف وأئمَّة السنَّة ما يغني عنه بعبارات تنشرح لها الصدور.

وقد يكون لكم من القصد نظير ما بلغني عن الشوكانيّ رحمه الله لمَّا قيل له: لأيِّ شيء تذكر كلام الزيديَّة في هذا الشرح؟، قال ما معناه: لآمن الإعراض عن الكتاب، ورجوتُ أنَّ ذكر ذلك أدعى إلى قبوله وتلقِّيه. وقد قيَّض الله لكتب أهل السنَّة المحضة مَن يتلقَّاها ويُعتنى بها، وأظهرها مع ما فيها من الردِّ على أهل البدع وعيبهم، وتكفير بعض دعاتهم وغلاتهم، فإنَّ الله ضمن لهذا الدين أن يظهره على الدين كلِّه.

والمقصود أنَّ في هذا التفسير مواضع تحتاج إلى تحقيق، ولنذكر لك بعض ذلك.

فمنه أنِّي نظرت في الكلام على آية الاستواء، فرأيتك قد أطلتَ الكلام في بعض المواضع بذكر كلام المبتدعةالنفاة كما تقدَّم.

ومنه أنَّ في الكلام تعارضًا، كقولكم في آية يونس: وظاهر الآية على أنَّه سبحانه إنَّما استوى على العرش بعد خلق السماوات والأرض؛ لأنَّ كلمة (ثمَّ) للتراخي، ثمَّ قلتم في سورة الرعد: و(ثمَّ) هنا لمجرَّد العطف لا الترتيب؛ لأنَّ الاستواء عليه غير مرتَّب على رفع السماوات. وكذلك قلتم في سورة السجدة: وليست (ثمَّ) للترتيب، بل بمعنى الواو.

فليُنظَر هذا من وجهين:

أحدهما: أنَّ ظاهرَه التعارض.

الثاني: أنَّ القول بأنَّ (ثمَّ) لمجرَّد العطف لا للترتيب في هذه الآية، إنَّما يقوله من فسَّر الاستواء بالقهر والغلبة، وعدم الترتيب ظاهر على

قولهم. وأمّا السلف وأئمّة السنّة وأهل التحقيق، فقد جعلوا اطّراد الآيات في جميع المواضع دليلا على ثبوت الترتيب، وردُّوا به على نفاة الاستواء، وأبطلوا به تأويلاتهم، كما هو معروف ومقرَّر في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره. فانظر من أين دخلت عليك هذه العبارات.

وقد رأيت للرازي عبارة في التفسير تُفهم ذلك، فلعلّك بنيت على قوله. وهذا الرجل وإن كان يلقَّب بالفخر، فله كلام في العقائد قد زلَّ فيه زلات عظيمة، وآخر أمره الحيرة. نرجو أنّه تاب من ذلك، ومات على السنَّة، فلا تغترَّ بأمثال أولئك.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في المحصل: وسائر كتب الكلام والمختلف أهلها، مثل كتب الرازي وأمثاله، وكتب المعتزلة والشيعة والفلاسفة ونحو هٰؤلاء، لا يوجد فيها ما بعث الله به رسوله ﷺ في أصول الدين، بل وجد فيها حقٌّ ملبوس بباطل. انتهى من منهاج السنَّة.

وقد قال بعض العلماء في المحصل:

محصل في أصول الدين حاصله   من بعد تحصيله أصل بلا دين
أصل الضلال والشرك المبين ما   فيه وأكثره وحي الشيطان

فكيف تسمح نفس عاقل أن يعتمد على مثل قول هٰؤلاء.

ومن ذلك أنّكم قلتم في سورة يونس أيضًا: استوى على العرش استواء يليق بجلاله ... وهذه طريقة السلف المفوِّضين، وقد تقدَّس الديَّان عن المكان والمعبود عن الحدود. انتهى

فإن كان المراد بالتفويض ما يقوله بعض النفاة وينسبونه إلى السلف، وهو أنّهم يُمِرّون الألفاظ ويؤمنون بها من غير أن يعتقدوا لها معاني تليق بالله، أو أنّهم لا يعرفون معانيها، فهذا كذب على السلف من النفاة.

وإذا قال السلف: أَمِرّوها كما جاءت بلا كيف، فإنّما ينفون علم الكيفيّة، ولم ينفوا حقيقة الصفة، ولو كانوا قد آمنوا باللفظ المجرَّد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله، لما قالوا: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، وأمرُّوها كما جاءت بلا كيف. فالاستواء لا يكون حينئذٍ معلومًا، بل مجهولاً بمنزلة حرف الجرّ. وأيضًا فإنّه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفيّة إذا لم يفهم من اللفظ معنى، وإنّما يحتاج إلى نفي الكيفيّة إذا ثبتت الصفات. هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

ولا نشكّ أنّ هذا اعتقادك، ولكن المراد أنّه دخل عليك بعض الألفاظ من كلام أهل البدع لم تتصوّر مرادهم، فتنبَّهْ لمثل ذلك.

وأمّا قول القائل: يتقدّس الديّان عن المكان، فهذا لم ينطق السلف فيه بنفي ولا إثبات، وهو من عبارات المتكلِّمين، ومرادهم به نفي علوّ الله على خلقه؛ لأنّ لفظ المكان فيه إجمال يحتمل الحقَّ والباطل، كلفظ الجهة والعلو.

والكلام في ذلك معروف في كتب شيخ الإسلام وابن القيِّم، فارجع إلى ذلك تجدْه، ولا نطيل به.

وحسب العبد الاقتصار في هذا الباب على ما ورد في الكتاب والسنَّة، كما قال الإمام أحمد: لا يوصف الله إلاّ بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، لا يتجاوز القرآن والحديث.

ومن ذلك ما ذكرتم عند قوله تعالى: ﴿ثمَّ استوى إلى السماء﴾ [فصلت: ١١]: وقد قيل إنّ خلق جرم الأرض متقدِّم على السماء، ووجودها متأخِّر، وقد ذكرها جماعة من أهل العلم. وهذا جمع جيِّد يجب المصير إليه. وفي (حَمَ) السجدة.

الجواب: أنّ الخلق ليس عبارةً عن الإيجاد والتكوين فقط، بل عبارة

عن التقدير أيضًا، والمعنى: قضى أن يُحدث الأرض في يومين بعد إحداث السماء. والجواب المشهور: أنَّه خلق الأرض أوّلاً، ثمَّ خلق السماء بعدها، ثمَّ دحا الأرض وحدها، والأوّل أولى، ففي هذا نوع تعارض.

ومن ذلك قولكم على البسملة: والرحمة إرادة الخير والإحسان لأهله، وقيل: ترك عقوبة من يستحقُّ العقاب، وإسداء الخير والإحسان إلى من لا يستحقّه، فهو على الأوّل صفة، وعلى الثاني صفة فعل. انتهى

وهذا هو التأويل المعروف عن بعض أهل البدع، يردُّون هذه الصفات إلى الإرادة؛ فرارًا ممَّا فهموه، حيث قالوا: إنَّ الرحمة رقَّة القلب، لا يصلح نسبتها إلى الله تعالى، فقال لهم أهل السنَّة: هذه رحمة المخلوق، ورحمة الربّ تليق بجلاله، لا يُعلم كيف هي إلاَّ هو.

ويلزمهم في الإرادة نظير ما فرُّوا منه في الرحمة، فإنَّ الإرادة هي ميل القلوب، فإمَّا أن تثبت إرادة تليق بالربِّ تعالى، وهو الحقُّ في جميع الصفات، وإمَّا أن تقابل بالتأويل وهو باطل.

و الآفة دخلت على النفاة من جهة أنَّهم لم يفهموا من صفات الربّ إلاَّ ما يليق بالمخلوق، فذهبوا لينفوا ذلك، ويقابلونه بالتأويلات.

قال شيخ الإسلام: إنَّهم شبَّهوا أوّلاً فعطَّلوا آخرًا. وأهل السنَّة والجماعة أثبتوا لله جميع الصفات على ما يليق بجلاله، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين، فسلموا من التشبيه والتعطيل.

ومن ذلك أنَّكم أكثرتم في هذا التفسير من حمل بعض الآيات على المجاز وأنواعه، وقد علمتم أنَّ تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز حدث بعد القرون المفضَّلة، ولم يتكلَّم الربّ به ولا رسوله ﷺ ولا أصحابه ولا التابعون لهم بإحسان.

والذي يتكلَّم به من أهل اللغة يقول في بعض الآيات: وهذا من مجاز

اللغـة ، ومراده أنَّ هـذا ممَّا يجوز في اللغـة ، ولم يرِدْ بهذا الحادث ، ولا خطـر ببالـه ، ولا سيَّما وقد قالـوا : إنَّ المجاز يصحّ نفيه ، فكيـف يليق حمل الآيات القرآنيَّة على مثل ذلك؟ .

وقـد أتى شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله في كتـاب الإيمان الكبير بما كفى وشفى ، وذكـر الآيات التي استـدلُّوا بها وبعض الأمثلـة التي ذكـروها ، وأجاب عن ذلك بما إذا طالعه المنصف عرف الصواب .

وقـواعـده أنَّ المجـاز لا يـدخـل في النصـوص ، ولا يهولنَّـك إطبـاق المتأخِّرين عليه ، فإنَّهم قد أطبقوا على ما هو شرٌّ منه ، والعاقل يعرف الرجال بالحقِّ ، لا الحقُّ بالـرجال . ومن عرف غربة الإسـلام والسنَّة ، لم يغترَّ بأقوال الناس وإن كثرت ، والله تعالى قال : ﴿وإن تُطِعْ أكثر مَن في الأرض يُضِلُّوك عن سبيله ...﴾[الأنعام : ١١٦] .

ومن أبلغ النـاس بحثًـا في المعـاني الزمخشريّ ، ولـه في تفسيره مـواضع حسنة ، ولٰكنَّه معروف بالاعتـزال ونفي الصفات ، والتكلُّف في التأويلات ، والحكم على الله بالشريعة البـاطلة ، مع ما هو عليـه من سبِّه السلف وذمّهم والتنقُّص لهم .

وفي تفسيره عقارب لا يعرفه إلاَّ الخواص من أهل السنَّـة ، وقد قال فيه بعض العلماء :

ولٰكنَّه فيه مجـــال لقـــــائل   وزلات سوءٍ قد أخذن المخانقا
ويشهد في معنى القليل إشارة   بتكثير ألفاظ تُسـمَّى الشقاشقا
يُقَـــوِّل فيها الله ما ليس قائلا   وكان محبًا في الخـــطابة وامقًا
ويشتم أعـــلام الأئمَّة ضلَّةً   ولا ســيَّما إن أولجوه المضايقا
لئن لم تُداركْه من الله رحمةٌ   لسـوف يُرى للكافرين مرافقًا

والمقصـود أنَّ الاعتماد على مثل أقوال هٰـؤلاء لا يليق بـالمحقِّق ؛ لا سيَّما

فيما يتعلَّق بمعـرفة الله وتـوحيده، وأنت تـرى مثل محمَّـد بن جريـر الطبريّ وأقرانـه، ومن قبله ومـن يقرِّبه في زمـانه لم يعـرج على هذه الأمور. وكـذلك المحقِّقون من المتأخِّين كابن كثير ونحـوه، وكما هو المأثور عن السلف رحمهم الله، وما استنبطوا منه.

فنسأل الله أن يلحقنا بـآثار الموحِّـدين، وأن يحشرنا في زمرة أهـل السنَّة والجماعة بمنِّه وكَرَمِه.

وقد اجترأت عليك بمثل هذا الكلام؛ نصحـاً لله ولرسوله ﷺ، رجاءً من الله أن ينفع بك في هذا الزمان الـذي ذهب فيه العلم النافع، ولم يبق إلا رسومه. وأنا أنتظر منك الجواب، وردّ ما صدر منِّي من الخطاب.

ثمَّ إنِّي لمَّا رأيت الترجمة، وقد سمّى فيهـا بعض مصنَّفاتك، وكنت في بـلاد قليلـة فيهـا الكتب، وقـد ابتُلِيـت بـالـدخـول في أمـور النـاس لأجل ضرورتهم، كما قيل: خلا لكِ الجوّ فبيضي واصفري.

وألتمس من جنابك أن تتفضَّل علينا بـ(بلوغ السول من أقضية الرسول ﷺ)، و(الـروضـة النـديَّـة شرح الـدرر البهيَّـة)، و(نيل المرام شرح آيـات الأحكـام)، فنحن في ضرورة عظيمـة إلى هـذه كلِّهـا، فاجعـل مِن صـالح أعمالك معونتك إخوانك ومحبِّيك بها، وابعـثْ بها إلينا مأجورًا - إن شاء الله تعـالى -، وليكنْ ذلـك على يـد الأخ أحمد بن عيسـى السـاكن في مكَّـة المكرَّمةالمشرفة.

واكتب لنا تعريفًا بأحوالكم، ولعلَّ أحدًا منكم من يتلقَّى هذا العلم، ويعتني بـه ويحفظ عنـك، واحرص على ذلـك؛ طمعًا أن يجمـع لك شرف الدنيا والآخرة، ونسأل الله أن يهب لك ذلك.

ثمَّ اعلم أنِّي قد بلغت السبعين، وأنـا في معترك الأعمار، لا آمن هجوم المنيَّة، ولي أولاد ثمانيـة، منهم ثـلاثة يطلبـون العلم، كبيرهم سعد المذكـور

أوّلاً، ويليه عبد العزيز ، وتحته عبد اللطيف، ونرجو أنّهم أهل الكتب، وممّن يعتزّ بها ويحفظها . وبقيّتهم صغار، منهم من هو في المكتب .

ومن دعائنا : ﴿ ... ربّنا هبْ لنا من أزواجنا وذرّياتنا قُرَّةَ أعينٍ واجْعَلْنا للمتّقين إمامًا﴾[الفرقان : ٧٤]، ﴿ربّنا واجعلْنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا أمّةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتُبْ علينا إنّك أنت التوّاب الرحيم﴾[البقرة :١٢٨] .

لا تنسنا من صالح دُعائك كما هو لك مبذول، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وصلّى الله على محمّد وآله وصحبه وسلّم